الفصل الرابع

الفكر الأخلاقي في فلسفة نيتشه ومضامينه التربوية

obeikandl.com

* تمهيد.

ترتبط نظرية الأخلاق عند نيتشه بنظريته المعرفية علي نحو وثيق، حيث يؤسس لبحثه في مجال الأخلاق الإنسانية وفقاً لذات الأساس الذي تقوم عليه نظريته في المعرفة، وهو المنظورية، ويمكن فهم المنظورية الأخلاقية عند نيتشه من وجهتين :

الأولى : وهي منظورية الأخلاق البشرية، حيث يعارض نيتشه وجهة النظر التي تري وجود مجموعة من القوانين الأخلاقية الثابتة والغير قابلة للتغير، والتي يجب إتباعها من قبل جميع الأفراد في كل الأماكن في جميع الأوقات، وتعد هذه المعارضة هي نقطة البداية في نقد نيتشه للأخلاق، حيث يري نيتشه أن سيادة نمط واحد للأخلاق هو سيطرة لإرادة القطيع على الإرادة الفردية المبدعة، ويذكر نيتشه:

> "إن الأخلاق في أوروبا اليوم هي أخلاق القطيع، مما يعني علي حسب فهمنا للأمور، أنها مجرد ضرب واحد من ضروب الأخلاق الإنسانية، يمكن أن يكون أو يجب أن يكون بجوارها وأمامها وخلفها أنماط عديدة ومختلفة من الأخلاق، و قبل كل شيء أخلاق أعلي، غير أن هذه الأخلاق تناوئ بكل قواها إمكاناً أو وجوباً من هذا النوع : أنها تقول بعناد وإصرار : أنا الأخلاق بعينها ولا شيء سواي أخلاق"[1].

ويرجع ذلك إلي فهمه لماهية الأخلاق باعتبارها منتجاً بشرياً مصاحباً لعملية السلوك، ويوضح ذلك علي لسان زرادشت:

> " لقد أقام الناس الخير والشر فابتدعوهما لأنفسهم، وما اكتشفوها أو نزلت عليهم من السماء، لقد وضع الإنسان للأمور أقدارها ليحافظ علي نفسه، فهو الذي أوجد للأشياء معانيها الإنسانية"[2]

وبناء علي هذا الرأي فإن نيتشه يرفض القول بوجود أي مصدر للأخلاق مجاوز للإنسان – سواء طبيعي أو إلهي – مما يجعل من الأخلاق مجالاً للإبداع والخلق من أجل دعم الوجود الإنساني وتقويته، وكلما زاد مدى دعم الأخلاق للحياة كلما زادت عظمتها، "ومن ثم

١-فردريك نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، مرجع سابق، الفصل الثالث، رقم ٢٠٢، صـ ١٤٩.

٢-فردريك نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، مرجع سابق، الكتاب الأول، ص ٨٥.

فإن من المعقول الافتراض أن الناتج الأفضل يمكن أن يكون من خلال تبني قواعد ملائمة لظروف محددة أكثر منه من خلال قوانين يجب أن يتبعه كل الأفراد في كل الظروف"[1].

الثانية : ويفترض القول بمنظورية الأخلاق النظر إلي أن ما ينتهي إليه نيتشه من نتائج وقواعد في مجال الأخلاق هي أيضاً منظـــورية، أي أنها صحيحة من وجهة النظر الخلقية Moral Point of View التي يحددها نيتشه،فالمشروع النتشوي في"إعادة تقويم كل القيم"[2] لا يعد تقويماً نهائياً لكل القيم، ولكن يتم تقديمه باعتبار أن عملية التقويم الأخلاقي هي عملية يقوم الفرد بمقتضاها بتحديد موقفه من الأخلاق، ويعيد من خلالها تشكيل النسق القيمي وترتيب الأولويات الأخلاقية.

ويؤكد نيتشه علي هذا المعني من خلال مهاجمته للنمط المميز لفلاسفة الأخلاق، والذي ينص على أن الأخلاق علي نحو مطـــلق ليس مجرد وجهة نظر ولكن بالضرورة إلزام[3].

وإذا كانت المنظورية الأخلاقية من وجهة النظر الأولي هي نتيجة ينتهي إليها نيتشه من دراسته لأصل الأخلاق البشرية وتطورها، فإنها من وجهة النظر الثانية هي دعوة يطلقها نيتشه للتأكيد علي عنصري الإبداع والتفرد في الإنسان باعتباره مقوما قادرا علي المراجعة النقدية لتراث الأخلاق وحاضره، وخالقاً مبدعاً لقيم وأخلاقيات أصيلة تعبر عن ذاته وواقعه.

وبناء على هاتين الوجهتين، فإن الدافع الأساسي لنيتشه في بحثه الأخلاقي هو الحاجة لنقد القيم الأخلاقية، ويؤكد نيتشه:

> " إن قيمة هذه القيم بحد ذاتها في حاجة لتوضع محل التساؤل، ولذلك فإننا نحتاج لمعرفة الظروف والشروط التي نشأت فيها هذه القيم وتطورت (الأخلاق كنتيجة وعرض، كقناع وعلة و سوء فهم، ولكن كذلك الأخلاق كسبب وعلاج ومثير وكابح وسم...)"[4] .

1- E.E.Sleinis, **Nietzsche's Revaluation of Values**,University of Illinois,The Board of Trustees,1994, p 18.

2 -F. Nietzsche , **The Will to power**, Op.Cit , Perface,No 4,p5.

3-Robert C.Solomon,"A More Severe Morality:Nietzsche's Affirmative Ethics", In Yirmiyaho Yovel, pp 69-89,**Op.Cit**,p 72.

٤-نقلاً عن :يسري إبراهيم، **مرجع سابق**، ١٣٤.

ووفقاً لذلك يتناول الفصل الحالي منهج نيتشه في البحث الأخلاقي، ورؤيته لعملية تقويم القيم، والمضامين التربوية في فلسفته الأخلاقية.

*الجينالوجيا *Genealogy ومنهجية البحث في الأخلاق.

يشكل اهتمام نيتشه بدراسة القيم الأخلاقية نقطة تحول هامة في تاريخ علم الأخلاق، حيث يتحول البحث الأخلاقي عند نيتشه من حصر القيم الموجودة وتصنيفها إلي البحث حول القيمة الأخلاقية للقيم ذاتها، وإخضاعها لمعايير تصنيفية محددة، ويوضح نيتشه:

" سرعان ما تحولت مشكلتي إلي شكل آخر، وهو في أي الأحوال استنتج الإنسان الأحكام القيمية الرفيعة والوضيعة ؟ وأي قيمة تملكها هذه الأحكام في ذاتها ؟ هل كانت حتى الآن معوق أو مساعد في تقدم الإنسانية ؟ هل هي علامة علي الفقر والحاجة وانحطاط الحياة، أم هي على العكس تلهمها الوفرة والقوة وإرادة الحياة بشجاعتها ويقينها ومستقبلها؟"[1].

ويحدد نيتشه هدفه من دراسة الأخلاق في " اجتياز الأرض الشاسعة والخفية للأخلاق – الأخلاق كما هي موجودة بالفعل، الآن ومنذ زمن طويل– بنظرة جديدة وأسئلة غير مألوفة، ألا يعني هذا اكتشاف هذه الأرض للمرة الأولي ؟ "[2].

ويكاد يكون كتاب " جينالوجيا الأخلاق" Genealogy of Morals هو الكتاب المنهجي الوحيد بين كتابات نيتشه، فعلي عكس معظم كتابات نيتشه المتشظية إلي شذرات وحكم تتناول موضوعات مختلفة ينتقل بينها بحرية، فإنه يقدم جينالوجيا الأخلاق "كمفتاح لتفسير الشذرات وتقويمها"[3]، حيث يقوم بتوضيح منهجه في التفلسف من خلال تقديم نموذج تطبيقي لهذا المنهج في مجال الأخلاق.

ولم يكن نيتشه هو أول من استخدم منهجاً جينالوجياً في دراسة الأخلاق، فيشير نيتشه في مقدمة الكتاب إلي عدة محاولات سبقته مثل دراسات الوضعيين الإنجليز لأصل الأخلاق، وكذلك دراسة بول رى* Paul Ree " أصل الاحساسات الأخلاقية "، و يتناول نيتشه هذه

---

*تعرّف الجينالوجيا بعلم النسابة أو البحث في الأصول لتحديد النسب.

١-نقلاً عن: يسري إبراهيم، **مرجع سابق**، ص ١٣٢.

2- Nietzsche ,**On The Genealogy of Morals**,Op.Cit,Perface,No 7,p21.

٣- جيل ديلوز، **مرجع سابق**، ص١١٢.

*بول ري (١٨٤٩-١٩٠١)فيلسوف يهودي فرنسي، حاول تفسير نشأة الأخلاق وتطورها وفقاً للمبادئ السيكولوجية الوضعية.

التحليلات الجينالوجية للأخلاق بالنقد في العديد من كتاباته باعتبارها تحليلات سطحية، فهي إما سهلة التأثر بالمظاهر متسرعة في إطلاق التعميمات، أو هي تحليلات تبريريه تحاول إثبات مبادئ محددة سلفاً وإرجاع أصل الأخلاق إليه، كذلك ينتقد نيتشه الصفة الغالبة علي هذه الأبحاث وهو التسليم بقيمة الأخلاق دون إخضاع هذه القيمة ذاتها للفحص النقدي[1] .

ويعزو نيتشه نقده لهذه الأبحاث الجينالوجية إلي الدوافع التي شكلت هذه الأبحاث، وما يستخدمه هؤلاء العلماء من مناهج علمية و تاريخية حول أصل الأخلاق، تهتم بما هو سلبي و إلزامي و ميكانيكي في السلوك' ويتخذ نيتشه موقفاً معارضاً تجاه كل من دوافعهم ومناهجهم ونتائج أبحاثهم، و يقرر فشلهم في صياغة رؤية متكاملة حول الأخلاق التقليدية[2]، لذلك يتخذ المنهج الجينالوجي عند نيتشه منحي مغايراً، حيث يهدف نيتشه من خلال فحصه الجينالوجي إلي تحديد قيمة الأخلاق ذاتها، يذكر نيتشه:

> يعد الاهتمام الأساسي أكثر من مجرد استعراض بعض الافتراضات الخاصة بي أو بالآخرين حول أصل الأخلاق، وبشكل أدق فإن هذه الافتراضات تعنيني من أجل الهدف الذي أسعى إليه، بحيث كانت وسيلة من وسائل متعددة [3] .

ويستخدم نيتشه المنهج الجينالوجي كمنهج متداخل التخصصات Interdisciplinary يسمح له بعرض تساؤلاته حول أصل الأخلاق وقيمتها والتوصل إلي الإجابات الملائمة، ويبدو من تخطيط نيتشه لمنهجه في البحث الأخلاقي مدى المرونة التي يسمح بها المنهج للتعرض للموضوع أو القيمة من أكثر من زاوية، ويتشكل المنهج الجينالوجي بصفة أساسية من ثلاث مجموعات رئيسية من التساؤلات تعرض لأصل الأخلاق من منظور ثلاثة علوم مختلفة هي:علم اللغة، والتاريخ، وعلم النفس أو السيكولوجي، ويوضح نيتشه ذلك:

> "إن قدراً معيناً من التعليم اللغوي والتاريخي إلى جانب حساسية فطرية لتذوق المشاكل النفسية باحترام حولت مشكلتي إلى شكل آخر، ...وعلى ذلك فقد اكتشفت وغامرت بإجابات

١- انظر:

أ – فردريك نيتشه، **العلم الجذل**، مرجع سابق، الكتاب الخامس، رقم ٣٤٥، ص ص ١٩٧-١٩٨.

ب– فردريك نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، مرجع سابق، الفصل السادس، رقم ٢١١، ص١٧٢.

c-F. Nietzsche ,**On The Genealogy of Morals**,Op.Cit,Perface,No 6,p 20.

2- Peter Berkowitz,**Nietzsche:The Ethics of An Immoralist**,London,Harvard University Press,1995,p 17 .

3-F. Nietzsche ,**On The Genealogy of Morals**,Op.Cit,Perface,No 5,p 19.

كثيرة، لقد فصلت بين الأجيال والشعوب، ومراتب الأشخاص، وقسمت مشكلتي إلى أقسام، ومن إجاباتي نبتت أسئلة وأبحاث واحتمالات جديدة"[1].

ويمكن العرض لهذه التساؤلات الثلاثة وفقاً للعرض التالي:

أ-التساؤل اللغوي البلاغي: تم التعرض في الفصل السابق إلى تناول نيتشه للتساؤل اللغوي البلاغي باعتباره من مبادئ التأويل المعرفي، ويتم هنا تناول استخدام نيتشه لهذا التساؤل في مجال الأخلاق.

ويستثمر نيتشه تساؤله اللغوي البلاغي في مجال الأخلاق من خلال إخضاع القيم الأخلاقية كمفاهيم للفحص، للكشف عن أصلها اللغوي، والعمليات التي اكتسبت من خلالها نفوذها داخل الشبكة المفاهيمية للوعي، والآليات التي تطورت بها إلي شكلها النهائي كقيمة أخلاقية مستقلة، فكما أن"التحولات المفاهيمية تسجل في اللغة علي نحو دقيق انعكاسات للأخلاق الأمبريقية الواقعية، فإن مدى ما تمثله الأخلاق من قيمة يعكس علاقتها اللغوية و المفاهيمية"[2] .

ويحول نيتشه موضوع بحثه الجينالوجي "الأخلاق، الثقافة، المسيحية ... "إلي نص، أو يراه كنص يقرأه ويفك شفرته ويفسره ويتعامل معه نقدياً، ويبدو بحث نيتشه اللغوي في مجال الأخلاق كمحاولة لتخطي المظهر نحو العمق مما هو خارج النص، وهكذا فهو يمد علاقات النص واللغة إلي أصله الخفي[3].

١-نقلاً عن :يسري إبراهيم، **مرجع سابق**، ١٣٤.

2 - Peter Berkowitz,**Op.Cit**,p 75.

3- Eric Blondel, **Nietzsche's Style of affirmation:The Metaphor of genealogy**,In Yirmiyahu Yovel, pp 132-146,Op.Cit,p 138.

• ويؤسس نتشه عن طريق هذا النوع من التساؤل صيغتين متناقضتين للثنائية الأخلاقية و هما ثنائية (الجيد-الرديء)في مقابل (الخير- الشر) والتي يستدل بها نيتشه في محاولته للوصول إلى أصل الأحكام الخلقية، ويذكر نيتشه:

> إن مرشدي إلى الطريق القويم كان السؤال التالي :ما هو المغزى الايتمولوجي(البحث عن أصل الكلمة Etymology) لمفهوم "الخير"Goodفي اللغات المختلفة، و لقد وجدته بصفة عامة يرجع إلى نفس التحولات المفاهيمية، ففي كل مكان شكل النبل و الأرستقراطية بالمعنى الاجتماعي المضمون الأساسي لكلمة جيد Good والتي تعنى "روح أرستقراطية "أو روح تنتمي لطبقة عالية أو روح متميزة لقد تطورت الفكرة من هذا الأصل بالضرورة، و هو ما صاحبه تطوراً موازياً على الجانب الآخر لكلمة "سيئ"Bad و التي صيغت بشكل نهائي للتعبير عما هو شائع و عامي و وضيع [1].

ويستخدم نيتشه خبرته الفيلولوجية ليدلل على أن المصطلح "جيد"قد تطور من المفاهيم الدالة على النبل و الأرستقراطية و أن المصطلح "سيئ"قد نشأ عن الكلمات الدالة على الوضاعة و العامية، ففي اللغة اللاتينية تستخدم الكلمة kakos (سيئ -قبيح-ضعيف المنشأ- خسيس -جبان) والكلمةDcilos (تافه-حقير-بائس) للتعبير عن العامة، في مقابل Agathos(جيد-كريم-سخي-شجاع- بارع) والمعبرة عن الطبقات النبيلة، وهو ما يستدل به نيتشه على صحة رأيه، حيث يرى أن ذلك يشير إلى الاتجاه الذي يجب أن يبحث فيه المرء عن أصل الخير [2].

و بناء على ذلك يرى نيتشه أن النبلاء قد استخدموا المصطلح "جيد"ليدللوا به على الصفحات الشخصية المتأصلة فيهم مثل الصدق و الشجاعة و الكرم، و بصفة عامة كل ما يدل على القدرات الروحية و العقلية و الجسدية الرفيعة، و في المقابل فقد نظروا إلى الصفات المناقضة باعتبارها تجسيد "السيئ" و التي تنتمي إلى الطبقات العامة، و من ثم فان الجيد و السيئ هي أحكام أخلاقية بقدر ما هي إشارة لطبقات اجتماعية مختلفة.

ومع انهيار هذه الطبقات الحاكمة الأرستقراطية انهارت هذه التراتبية الأخلاقية، ليظهر محلها تراتبية أخرى أقامتها الطبقات الحاكمة الجديدة والتي كانت محكومة من قبل، والتي تؤسس لأحكام أخلاقية جديدة هي بالأساس مناقضة للنظام القيمي السابق، فيستخدم مصطلح

1- Nietzsche ,**On The Genealogy of Morals**,Op.Cit,Book I,No 4,p 26.
2- **Ibid**,No 5,p 29.

"الشر" Evil للدلالة علي القيم الأرستقراطية، والمصطلح " خير" good " للدلالة علي ما يناقضها، ويذكر نيتشه عن ذلك:

"إن الجنس النبيل يحسب نفسه معيناً للقيمة، ولا حاجة به إلى من يستحسنه، وهو يقرر "ما يضر بي مضر في ذاته" ويعي أنه هو أولاً وأخيراً من يضفي قيمة على الأشياء:إنه خالق القيم، وهو يكرم كل ما يدركه في ذاته، إن أخلاقاً كهذه تمجيد للذات.....والحال على غير ذلك فيما يخص النمط الثاني من الأخلاق، أخلاق العبيد، فلنفرض أن المقموعين والمتألمين واللا-أحرار واللا-واثقين من أنفسهم يُأخلقون(يصنعون تقويمات أخلاقية):فماذا عسى أن يكون المشترك في كل تقويماتهم الأخلاقية؟يغلب الظن أنه سيكون ارتيابا من وضع الإنسان ككل، وربما عن استنكار للإنسان برمته، فنظرة العبد تضيق بفضائل صاحب القدرة"[1].

ويشرح عبد الرحمن بدوي ذلك بقوله"إذا كانت صورة الرجل الجيد عند الأرستقراطيين هي صورة الرجل المحارب المغامر الذي يريد السيطرة والغزو ويفيض بالقوة ويحتقر التواضع والجبن ولا يعرف الرحمة والتلطف، فإن صورة الرجل الخير عند الآخرين، هؤلاء العبيد والمسودين، هي صورة الرجل الوديع المتواضع الذي لا مطمع له في غزو و لا رغبة في سيادة، والذي يحسب الضعف فضيلة، والتعاطف والرحمة اسمي القيم الأخلاقية"[2].

. ويمكن القول إن نيتشه ينتهي من هذا التحليل اللغوي إلي عدة نتائج أساسية في نظريته الأخلاقية، وأهم هذه النتائج :

- أن التقويمات الأخلاقية هي تقويمات وضعية متغيرة، و تشير في الأساس إلي سيادة طبقات اجتماعية بعينها .
- أن الفارق الأساسي في التمييز بين أخلاق السادة أخلاق العبيد هو(الإيجابية) التي تتميز بها التقويمات الأخلاقية للسادة، والتي تضع قيمها بالأساس كخير وتحدد القيم الأخرى كرديء أو سيئ، في حين تتسم أخلاق العبيد بالسلبية حيث يعتمد تقويمهم الأخلاقي علي تحديد سمات الآخر بوصفها شراً كأساس لهذا التقويم، بناء عليه تحديد الخير من نقيض هذه الصفات.

١- فردريك نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، مرجع سابق، الفصل التاسع، رقم ٢٦٠، صـ ٢٤٨-٢٥٠.

٢- عبد الرحمن بدوي، **مرجع سابق**، ص ١٦٧.

- أن أخلاق السادة تتسم بالفاعلية من حيث هي داعمة للإقبال علي الحياة وإثرائها والعلو بها، في حين تتسم أخلاق العبيد بالتشاؤم من الحياة والشك فيها ومحاولة البحث عن تبريرها بإيجاد عالم أخر يتم تأسيسه علي النقيض من صفات هذا العالم (سواء من خلال اللاهوت أو الميتافيزيقا) .

ب-التحليل التاريخي: يعني نيتشه في منهجه الجينالوجي عناية شديدة بالتحليل التاريخي للأنماط والقيم والأنساق الخلقية، باعتبار أن الجينالوجيا أو تحديد أصل القيم مهمة تقع على عاتق التأريخ أكثر منها تخص الفلسفة، و يرى نيتشه أن مدخله الجينالوجي سيقدم مدخلاً جديداً لمجال الدراسات التاريخية حول أصل القيم وليس للدراسات الفلسفية بمعناها الأكاديمي[1]، ويرجع هذا الاهتمام بالتاريخ إلى محاولة نيتشه لتحديد قيمة الأنساق الخلقية(وبصفة خاصة الأخلاق المسيحية واليهودية) من خلال الكشف عن أصلها التاريخي.

ويحدد نيتشه منطق تاريخ الأخلاق في التناقض أو الصراع بين هيكلي التقويم "الجيد والسيئ " و"الخير والشر" كأساس لنظريته الأخلاقية، ويرى من خلالها أن تاريخ الأخلاق الإنسانية هو تاريخ الصراع بين " أخلاق السادة " وأخلاق العبيد، ويقتص أثر هذا الصراع تاريخياً كصراع بين روما و اليهود، ويؤكد نيتشه:

> إن التقويمين الأخلاقيين (الجيد والسيء) و(الخير والشر) قد انهمكا في صراع رهيب علي الأرض لآلاف الأعوام، ومع أن التقويم الأخير قد ساد بدون شك لوقت طويل، فمازال هناك أماكن لم يحسم الصراع فيها بعد، بل ويمكن القول إن هذا الصراع قد ارتفع وأصبح بشكل متزايد عميقاً وروحانياً، أن رمز هذا الصراع عبر كل التاريخ الإنساني هو "روما ضد اليهود" و"اليهود ضد روما"ولم يوجد حتى الآن حدث أعظم من هذا الصراع [2].

ويمثل الصراع بين هذين النمطين الأخلاقيين صيرورة تاريخ الأخلاق البشرية، والذي يتخذ بدايته من بزوغ أخلاق السادة من خلال الممارسات الشخصية لأرستقراطية المحاربين والتي تتحول لنمط أخلاقي معياري للسلوك ممثلاً في روما، "لقد كان الرومان هم الأقوياء والنبلاء، الأنبل والأقوى بين شعوب الأرض حتى ذاك الحين، وهو ما يشهد به كل ما تركوه من نقوش مبهجة"[3].

---

1 -F. Nietzsche ,**On The Genealogy of Morals** ,Op.Cit,Book I,No 16, pp 52.
2- **Ibid** , Op.Cit,Book I,No 16, pp 52-53.
3 - **Ibid** ,Op.Cit,Book I,No 16, pp 52-53.

بينما تمثل النمط الأخلاقي الآخر، أخلاق العبيد، في نشأة التقويمات الأخلاقية اليهودية، والتي جاءت بمثابة ارتكاس، أو كما يفضل نيتشه أن يصفها "انتفاضة العبيد أو الفلاحين في مجال الأخلاق"، يذكر نيتشه :

"إن اليهود–وهم شعب ولد للعبودية على حد وصف العالم القديم لهم، أو الشعب المختار بين الشعوب على حد قولهم–حققوا تلك المعجزة في قلب القيم التي أضفت على الحياة الدنيوية فتنة جديدة وخطرة.....وفي قلب القيم هذا تكمن أهمية الشعب اليهودي:به تبدأ انتفاضة الفلاحين في الأخلاق"[1].

ويضيف كذلك "ومع اليهود بدأت أول ثورة للعبيد في مجال الأخلاق"[2] والتي "يرجع الفضل في انتشارها إلي يسوع الناصري وبطرس وبولص"[3].

ومن خلال هذا العرض التاريخي لجينالوجيا الأخلاق يحول نيتشه الصراع الأخلاقي إلي صراع طبقي تاريخي، تحدد فيه الطبقة المسيطرة نمطها الأخلاقي وتفرضه علي الطبقات المسيطر عليها، و يشير التقويم الأخلاقي السائد في المجتمع إلي ماهية الطبقة الحاكمة، وبينما ترمز روما من الوجهة الأخلاقية إلي أرستقراطية النبلاء والمحاربين، فإن اليهود يمثلون النمط الأخلاقي التاريخي لأرستقراطية الكهنة التي تعبر عن سيادة طبقات العبيد في مراحل تاريخية معينة .

ويكمن الفرق بين كلٍ من أرستقراطية السادة وأرستقراطية العبيد في إرادة القوة الخاصة بكلٍ منهما، فبينما هي في الحالة الأولى فاعلة وإيجابية، فإنها في الحالة الثانية سلبية وارتكاسية.

"تقتضي الأحكام القيمية الأرستقراطية بدناً قوياً وصحة مزدهرة وفيرة فياضة إلي جانب العوامل التي تحافظ عليها وهي : الحرب و المغامرة، والقنص، والرقص والعاب الحرب، وبصفة عامة كل يشتمل علي نشاط قوى حر ومبهج، أما الأسلوب الكهنوتي في التقويم فيقتضي أشياء أخرى غير ملائمة له عند الحرب، فالكهنة من الأعداء الأكثر شراً لأنهم الأكثر عجزاً "[4].

١– فردريك نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، مرجع سابق، الفصل الخامس، رقم ١٩٥، صـــ ١٤٠.

2- Nietzsche ,**On The Genealogy of Morals** ,Op.Cit,Book I,No 7,p 34.

3 - **Ibid**,No 16,p 53.

٤– نقلا عن: يسري إبراهيم، **مرجع سابق**، ص١٥٠ .

obeikandl.com

ومن هذين النمطين الأخلاقيين ظهرت كل الأنماط الأخلاقية في الحضارات المختلفة بدءا من ذلك التاريخ، ويرى نيتشه أنه بينما مثل عصر النهضة في القرنين السابع عشر والثامن عشر وكذلك فرنسا في عصر نابليون النمط الأخلاقي للسادة، فإن الثورة الفرنسية والمذاهب الأخلاقية المسيحية والفلسفية في القرن التاسع عشر هي انتصار للنمط الأخلاقي للعبيد[1].

وبصورة عامة فهو يرى أن انتصار هذا النمط الأخلاقي إنما هو بمثابة " إرجاء غير قاطع وأن أخلاق السادة يجب أن تظهر في يوم ما"[2] .

ووفقاً للعرض السابق فإن نيتشه يستخدم التساؤل التاريخي حول الظواهر الأخلاقية، أو"التأويلات الأخلاقية للظواهر"[3]، لتحقيق هدف أساسي وهو تصوير حركة تاريخ الأخلاق كصراع بين أخلاق السادة والعبيد، لتعميق وتأكيد التفرقة الثنائية التي يحددها بين التقويمين الأخلاقيين (الجيد/الرديء) و (الخير/الشر).

ويقوم نيتشه بتحليل العديد من القيم الأخلاقية مثل "الشفقة" و"الغيرية"، ويردها إلى أصولها التاريخية باعتبارها نشأت عن أنماط تاريخية أخلاقية محددة، وتطورت وفقاً لعمليات تاريخية بعينها.

ويمكن التأكيد في هذا التأريخ الجينالوجي على المزج بين التاريخ والفلسفة والدين وعلم الأخلاق باعتبارهم وحدة واحدة تشكل حركية الحضارة الغربية، وهو مايؤكد عليه برند ماجنوس Bernd Magnus من أن التفسير التاريخي الجينالوجي للأخلاق يقوم علي فرضين أساسيين[4] :

الأول : أن هناك نقاط تقاطع هامة بين التاريخ والفلسفة والأخلاق و الدين يجعل من الممكن من التحدث عنها معاً كحركة واحدة مدفوعة بإرداة القوة.

1- Nietzsche ,**On The Genealogy of Morals,** No 16,p 54.

2 - **Ibid**,No 16,p 55.

٣- فردريك نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، مرجع سابق، الفصل الرابع، رقم١٠٨، ص ١١٠.

4 -Bernd Magnus , "Nietzsche and The Project of Bringing Philosophy to an End" , In : Yirmiyahu Yovel, pp 39-57,**Op.Cit**,p 41.

الثاني : أن العوامل التاريخية المتداخلة (الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، الديموغرافية، الأثنية) كمحددات الحضارة والشخصية الغربية، ليست بذات الأهمية التي للعوامل الأولية (الفلسفة، الدين، الأخلاق).

ويتميز هذا التناول التاريخي الجينالوجي بالمزج بين الرؤى التقليدية والنقدية للتاريخ، فعلي حين يبدو متفقاً مع الأهداف الرسمية للتأريخ التقليدي وهو الاكتشاف من خلال فحص لمصادر أصل أو أسباب معتقدات أو ممارسات محددة، كذلك في الاستفادة من التاريخ لغرض نماذج للاكتمال البشرى، ويقدم التأريخ الجينالوجي رؤية تأويليه جوهرية جديدة للتاريخ والأخلاق أكثر شمولاً وفائدة مما يقدمه المؤرخون الأكاديميون من رؤى تاريخية تحدد الماضي كموضوع لأحداث ثابتة غير قابل للتأويل، وتتمثل هذه الرؤية في التحديد القيمي والأخلاقي لطرق الحياة المختلفة، مع التأكيد علي تحرير الدراسة التاريخية من الثوابت والحدود الأخلاقية والاجتماعية للتاريخ[1].

و تتميز الرؤية الجينالوجية بنمط جديد من الفحص التاريخي والأخلاقي والقائم علي إخضاع التفسيرات التاريخية والأخلاقية للدراسة السيكولوجية، "فالأصول الأخلاقية التي يهتم بها نيتشه هي بالأساس ليست تاريخية أو اجتماعية، بل بالأحرى الظروف التي تمر بها النفس والتي تحدد دوافع الفعل لكل من يعطون الأسماء الأصلية للقيم، و لهؤلاء الذين يعيدون تقويم القيم الأصلية"[2].

ت-**الفحص السيكولوجي:** ويقوم نيتشه بالفحص السيكولوجي للقيم الأخلاقية في اتجاهين متكاملين، الأول هو الذي ينطلق من تحديد النمط الأخلاقي للوقت الحاضر بحثاً عن أصوله في الماضي، والثاني هو الذي يتحرك بدءا من تفسيرات سيكولوجية للماضي والكشف عن نتائجها الأخلاقية في الحاضر والمستقبل، و بهذا تتحدد مهمة الباحث الجينالوجي في " كتابة تاريخ البُنى الاجتماعية والسيكولوجية التي تحرف إدارة القوة، وتعقب للكيفية التي قام بها الحقد والاستياء- اجتماعياً ومفاهيمياً – بتدمير النبالة الأرستقراطية للأبطال القدماء، واستبدال

---

1 - Look:
   a- Alasdair Macintyre,**Op.Cit**, pp 40-41.
   b- Peter Berkowitz,**Op.Cit**, pp68-70.
2- Peter Berkowitz,**Op.Cit**, pp 70-71.

مجموعة من القيم الكهنوتية بها"[1]، ولذلك فإنه يمكن تحديد الفحص الجينالوجي كنوع من التحليل الكلي السيكولوجي للإنسان الحديث النابعة من الأسباب التاريخية لعصابه [2]

ويؤكد نيتشه علي الفحص السيكولوجي للقيم باعتباره أحد الجوانب الهامة في منهجه الجينالوجي، ويري أن الفحص السيكولوجي يجب أن يتخلص من التحيزات الأخلاقية لكي يستطيع أن يكشف عن أعماق النفس البشرية، ويتعامل مع السيكولوجي باعتباره " علم أشكال إرادة القدرة وتطورها"[3]، وهو ما تؤكد عليه الاتجاهات الحديثة في علم النفس التحليلي من أن الاهتمام بالدراسة السيكولوجية للقيم الأخلاقية هو معالجة للإرادة الإنسانية وتأكيد على حريتها وحيويتها[4].

وتتجلى إرادة القوة عند نيتشه علي المستوي السيكولوجي باعتبارها دافعا إنسانيا أوليا وملحا يفرض علي الإنسان السعي المتواصل للوصول للدرجة القصوى من الظروف المشجعة التي يستطيع من خلالها أن يحقق أعلى درجة من الإحساس بالقوة والتعبير عنها، وفي الوقت ذاته فإن الإنسان يواجه أي إحباط لهذه الظروف بمنتهى الكره والحقد[5].

وينشأ التقويم الأخلاق لدي كل من السادة والعبيد عن هذا الدافع السيكولوجي الملح، فالسيد (النبيل أو البطل) يجد في إبداع تقويمه الأخلاقي وفرضه أقصي تحقيق لإرادة القوة، ويجد في العدو فرصة مناسبة للتعبير عن هذا الدافع، فكل عقبة يتم تجاوزها والتغلب عليها تزيد من إحساسه بقوته، لهذا يحترم النبيل عدوه ويقبل بجسارة علي مواجهة العقبات وإخضاعها.

أما العبد فهو بطبيعته ارتكاسي، لذلك فهو غير قادر علي الفعل، ويولد عدم إشباع دوافعه لديه حالة شديدة من الإحباط أو ما يسميه نيتشه "الاستياء"، ويعرف نيتشه "الاستياء"

1- Alasdair Macintyre,**Op.Cit**, pp 39-40.

2 - John Andrew Bernstein, **Nietzsche's Moral Philosophy**, Tornto:Fairleigh University Pres,1987, pp 93-94.

٣- فردريك نيتشه، " **ما وراء الخير والشر** " مرجع سابق، الفصل الأول، رقم٢٣، ص ٤٩

4 - Robert P.Cavalir,**Personal Motivation**,London,Prager Publishers,2000,p 19.

٥- أنظر:

أ- فردريك نيتشه، " **ما وراء الخير والشر** " مرجع سابق، الفصل الأول، رقم١٣، ص ٣٧.

b-F. Nietzsche "**On The Genealogy of Morals**"Op.Cit,Book III,No 7, p 109.

بأنه حالة لا شعورية تولد مشاعر التشاؤم وعدم الثقة في الحياة، والرغبة في التمرد، والحقد والرغبة في الانتقام تجاه الطبقات المسيطرة .

وهذه الحالة اللاشعورية تسيطر علي العبد، وتدفعه نحو "انتقام خيالي" يوجهه نحو السادة، "ومن هذا الحقد العاجز خرجت القيم الأخلاقية التي سممت حياة الإنسانية"[1] والاستياء بهذا المعني هو أحد أشكال إرادة القوة، إلا إنه من أشكال إرادة القوة الخاصة بالإنسان الارتكاسي.

وبالتالي فإن الاستياء ليس دافعاً للفعل بل محرضاً علي رد الفعل " فطريقة تفكير الإنسان العبد في تحقيق القوة تسير وفقاً للاستياء كرغبة في معاقبة وقهر من هم أفضل منه وأكثر قوة"[2] لذلك يتمثل رد الفعل بدافع من الحقد في الفصل بين الإنسان الفاعل وقوته من خلال نقض التقويم الأخلاقي الخاص بالسادة " ذلك أن قوة الإنسان إنما تكمن في قوة قيم الأخلاقية التي يهتدي بها في حياته"[3].

ويتجه نيتشه بعد ذلك لتحليل القيم الأخلاقية مثل "الشفقة" و "الغيرية" سيكولوجيا من خلال مفهوم "الاستياء" حيث يستخدم مصطلح الاستياء ليوظفه بصورة ثابتة كأداة تفسيرية لتحديد بعض المواقف والقيم والمعتقدات الأخلاقية والتي يوضح من خلالها لماذا يعتبر المسيحية أخلاقاً للعبيد [4] .

حيث يرى في تأكيد الديانة المسيحية على تصوير البائسين والفقراء والضعفاء والعبيد علي انهم هم الطيبون والذين يتحقق لهم النجاة في عالم آخر، في حين يهلك الأقوياء والسادة لأن قيمهم هي الشر ذاته كما تتمثله الأخلاق المسيحية – اليهودية، ويصل الانتقام الروحي لأخلاق الاستياء إلي مداه في التأكيد على أن المباركين في النعيم سيتمتعون برؤية عقاب الملعونين [5]، لذلك فالعالم الآخر يعبر عن حاجة سيكولوجية ملحة لإبطال هذا العالم وتحقيره.

١- يسري إبراهيم، **مرجع سابق**، ص ١٥٠.

2-Peter Berkowitz,**Op.Cit**, p 77.

٣- يسري إبراهيم، **مرجع سابق**، ١٥١.

4- Bernd Magnus, **Nietzsche and The Project of Bringing Philosophy to an End**,Op.Cit,p 48.

٥-أنظر:

أ-جيل ديلوز، **مرجع سابق**، ص١٥٧.

ب-يسري إبراهيم، **مرجع سابق**، ١٥٧-١٥٨.

وينتقل نيتشه بعد ذلك لتقديم تحليلا سيكولوجي حول الإحساس بالخطأ أو وخز الضمير باعتباره " إرادة القوة موجهة نحو ذاتها"[1] فنتيجة لسيادة التقويم الأخلاقي للعبيد، تتحول القوة الفاعلة إلي إرتكاسية ويتم استبطان Internalize إرادة القوة أي توجيهها نحو الداخل، ويؤكد نيتشه:

> إن إرادة القوة التي لا تستطيع أن تحقق فعلها في العالم الخارجي يتم توجيهها علي نحو تعويضي إلي الداخل في شكل تأنيب مؤلم، وهذا هو أصل فكرة الخطيئة المسيحية [2] .

ويخصص نيتشه المبحث الثالث من كتابه "جينالوجيا الأخلاق" لفحص سيكولوجية المثال الزهدي الممثلة لسيكولوجية الاستياء والحقد، وتعبر عن ذاتها في الرغبة في تشويه الحياة والتوقف عن الفعل، "إن المثال الزهدي يعبر عن الرغبة في اللا شئ، وليس التوقف عن الرغبة"[3] ويري إنه تم استخدام المثال الزهدي كوسيلة لإعاقة نمو الحياة ونشاطها، حيث يتم إخضاع عمق الحياة وقوتها من خلال ازدراء متع الحياة وجمالها و بهجتها، والبحث عن السعادة في الألم والمرض والحرمان وإماتة النفس وتعذيبها والتضحية بها .

ولا ينكر نيتشه الزهد علي الأطلاق بل إنه يري أن المثل الأعلى للزهد يعبر عن إرادة القوة [4]، ولكنه يثني عليه كوسيلة لا غني عنها يتعلم الإنسان من خلالها كيفية ممارسة قوته علي ذاته والسيطرة علي نفسه فيتخلى بكل إرادته عما يريد، إلا إنه ينكر الزهد كمثال أعلي وغاية حيث يتحول إلي موقف عدائي تجاه الحياة الإنسانية، وينتهي بها إلي حالة من العدمية[5]

وتشكل التساؤلات السابقة الجانب النقدي من الممارسة الجينالوجية عند نيتشه والتي تعني بالبحث في أصل القيم الأخلاقية السائدة، ويشير سلينيس E.E.Sleinis إلي أن إنجاز المهمة الخاصة بإعادة تقويم كل القيم تتطلب في المقابل تقديم نسق جديد من القيم ، والتي تعد مطلوبة للتخلص من القيم الزائفة وصيغ تنظيم وتوجيه الحياة والمأخوذ بها كتجسيد للقيم الأصلية والتي في الحقيقة تعمل علي إضعاف القيم الحقيقية ككل، ولهذا فإن هناك حاجة لقيم

1-F. Nietzsche "**On The Genealogy of Morals**"Op.Cit,Book II,No16,p 85.
2- **Ibid**,Book III,No 20,p 146.
٣- فردريك نيتشه، **هذا هو الرجل**، مرجع سابق، ص١١٣.
4-F. Nietzsche "**On The Genealogy of Morals**"Op.Cit,Book III,No 23,p 153.
٥- يسري إبراهيم، **مرجع سابق**، ص ١٦٩.

جديدة لأنماط جديدة من تنظيم وتوجيه الحياة تعمل علي إنعاش القيم وتقويتها، وهي ما يدعوها نيتشه بالتشكيل الأسمى للقيم High Values orde[1].

نيتشه وإعادة تقويم القيم.

مما سبق يمكن تحديد غاية بحث نيتشه حول الأخلاق في عبارته (إعادة تقويم كل القيم)، والتي تنطوي على جانبين متكاملين، الأول سلبي يتمثل في نقد التقويمات الأخلاقية السائدة، والآخر إيجابي يتمثل في تأسيس تقويمات جديدة .

أولاً:نقد التقويمات الأخلاقية السائدة، حيث نظر إلى التقويمات الأخلاقية السائدة في عصره و خصوصاً الأخلاق المسيحية على أنها علامة انحطاط و انحلال الجنس البشرى، ويصف نيتشه الموقف الأخلاقي في عصره قائلاً:

> "وهو ما بدا لي كبداية النهاية، توقف مماثل للموت، ضجر متكرر ودائم، علامات واهنة و محزنة على المرض اللانهائي، أنني أفهم الانتشار الواسع لأخلاق الشفقة التي استولت على الفلاسفة وحولتهم لمرضى أخلاقياً كأبرز علامة على فساد الثقافة الأوروبية، التي أصبحت فاسدة في ذاتها نتيجة لتحولها إلى العدمية"[2] .

و يفهم نيتشه العدمية في مجال الأخلاق على أنها تفسخ للحضارة نتيجة لاستئصال الغرائز الإنسانية الإيجابية نحو الحياة، معبرة عن نفسها في التوقف عن السعي خلف تحقيق الاكتمال البشرى الأسمى، والرضا بالوسطية و العادية كمعايير مطلقة للجنس البشرى، وهو نفس المعنى الذي يؤكد عليه روبرت سولومونRobert C.Solomon من أن العدمية هي إحساس بالإحباط، بسبب فشل الفلسفة في تبرير المبادئ الأخلاقية، و عجز المبادئ الأخلاقية عن تبرير نسيج الحياة ذاته[3]، لذلك يرى نيتشه ضرورة تفكيك هذه التقويمات الأخلاقية وصياغة تقويمات أخلاقية جديدة.

ثانياً:تأسيس تقويمات أخلاقية جديدة، ويعد الهدف النهائي لفلسفة نيتشه هو إقامة تقويم أخلاقي جديد على أساس من إرادة القوة و إبداع نمط أخلاقي جديد ملائم لمجيء الإنسان الأعلى، وهو ما يؤكد وجهة النظر التي ترى في نقد نيتشه للتقويمات الأخلاقية السائدة بمثابة

---

1 - E.E.Sleinis,**Op.Cit**, p 12.
2- F. Nietzsche ,**On The Genealogy of Morals**,Op.Cit,Perface,No 5,p19-20.
3- Robert C.Solomon,**Op.Cit**,p 71.

نقطة البداية في بناء تقويمات أخلاقية جديدة وفقاً لأسس مغايرة، وهو مايؤكد عليه نيتشه بقوله"لا يمكن الهدم إلا بالبناء..فقط الخلاقون يمكنهم أن يزيلوا"[1].

ويرجع بعض نقاد نيتشه للجانب الإيجابي في المنهج الجينالوجي قيمة أكبر من جانبه السلبي"فإذا كانت الرؤية الجينالوجية تتطلب منا تبصر كاف لفهم الأخلاق السائدة كعلامة على السوء والاستياء على نحو غير ملائم، فان هذا يتطلب بدوره تحطيم الأصنام الأخلاقية و إقامة نماذج جديدة ملائمة"[2].

ولا يهتم نيتشه بتقديم نسق جديد من القيم الأخلاقية بالقدر الذي يوليه لعملية التقويم الأخلاقي ذاتها، فليس المقصود بإعادة تقويم كل القيم مجابهة نظام جوهري من القيم واستبدال نظام جوهري آخر به، ولكن المقصود تغيير المعايير التي يتم وفقاً لها تقويم القيم الأخلاقية بشكل جذري، وبناء أنساق من القيم وفقاً لهذه المعايير، وهذه هي مهمة علم الأخلاق عند نيتشه، تأسيس معايير جديدة من القيم بدلاً من إطلاق الأحكام الأخلاقية[3].

ويحدد نيتشه معيار نسقه القيمي وفقاً لما يدعوه الفرد المستقل باعتباره غاية النشاط الأخلاقي، وعلى حين ينفي نيتشه كل غائية في الوجود أو الحياة، فإنه يرى أن الأخلاق تنزع لتشكل في النهاية الفرد المستقل باعتباره نتاجا نهائيا لسلسلة طويلة من عمليات التطور، ويحدد الوصول لهذا الفرد المستقل باعتباره معياره الخاص بالتقويم الأخلاقي، من خلال التساؤل حول أيٍ من القيم الأخلاقية يمكن أن تنتهي إلى هذه الغاية، ويؤكد نيتشه:

> تطرح الشجرة في النهاية ثمرتها كنهاية لعملية الضخمة من التطور، حيث يبدو المجتمع وأخلاق العرف مجرد وسائل لا أكثر لهذه الغاية، إن أنضج ثمار هذه الشجرة هو الفرد المستقل الذي لا يشابه إلا ذاته، الذي يتحرر من قيود أخلاق العرف، الفرد المستقل ما وراء الأخلاقيات، حيث تشكل الأخلاق والاستقلال مصطلحين متناقضين كليةً، وباختصار، الفرد المحدد باستقلاله وإرادته الثابتة، المخول بقطع الوعود، والذي يهتز ضميره فخراً، مما تم تحقيقه أخيراً وتجسد كمثال حي في شخصه، وعي حقيقي بالقوة والحرية، إحساس بالاكتمال الإنساني عامةً.

١- فردريك نيتشه، **العلم الجذل**، مرجع سابق، الفصل الثاني، رقم ٥٨، صـــ ٧٢.

2- Alasdair Macintyre, **Three Rival Versions of Moral Enquiry**, Notre Dame, University of Notre Dame Press,1990,pp 42-43.

٣- فردريك نيتشه، **العلم الجذل**، مرجع سابق، الكتاب الرابع، رقم ٣٣٥، ص ١٨٥.

كيف يمكن لهذا الإنسان الذي أصبح حرا، ذو القدرة حقيقية على قطع الوعود، هذا المستقل السيد لإرادته الحرة، كيف يمكن ألا يدرك التفوق الذي يتمتع به فوق كل فرد آخر لا يملك حق قطع الوعود؟ وألا يدرك كم الثقة والخوف والاحترام الذي يخلقه(وهو يستحق كل هذا)؟ وأنه-بهذه السيادة على نفسه-يملك بالضرورة سيطرة على الظروف المحيطة به، على الطبيعة، وكل تلك المخلوقات ذات الإرادة الأضعف والأقل ثقة ؟

ووفقاً لذلك فإن هذا الإنسان الحر، ذو الإرادة الثابتة والصلبة، يحوز معيار القيم الخاص به، إنه ينظر خارج ذاته للآخرين لينمح أو يمنع الاحترام لهم، فكما يجب عليه أن يجل الآخرين الذين هم مثله، الأقوياء والمستقلين، والمخولين بقطع الوعود، (وبكلمات أخرى، كل فرد يقطع الوعود، المستقل والجاد والنادر والبطيء والمقتصد في ثقته، الذي يجل الآخر بمنحه ثقته، والذي يعطي كلمته كشيء حقيقي وواقعي، لأنه يعرف انه قوي بما فيه الكفاية ليبقى منتصباً حينما يعانده سوء الحظ أو الظروف)، كذلك فمن الضروري أن تبقى قدمه جاهزة لركل كل هزيل غير جدير بالثقة، الذي يعطي وعوداً دون أن يكون مخولاً بذلك، وأن تبقى عصاه جاهزة لعقاب كل كاذب يكسر كلمته في ذات اللحظة التي تخرج من فيه.

هذه المعرفة الفخورة بالتميز الاستثنائي للمسؤولية، الوعي بهذه الحرية النادرة، هذه القوة للفرد على ذاته وعلى الطبيعة، يتم استبطانها داخلياً وتنمو غريزياً، لتصبح غريزة مسيطرة، هذه الغريزة المسيطرة تمثل الوعي الأخلاقي للفرد المستقل." [1]

ووفقاً لهذه الغاية (الفرد المستقل في مجال الأخلاق) يحدد نيتشه محورين أساسيين لتقويمه الأخلاقي:

- إرادة القوة كمعيار للتقويم.
- أخلاقيات الشخصيةEthics of Personality أو خلق الشخصية Charcter Morality .

وبالنسبة للمحور الأول، فإن إرادة القوة كمعيار للتقويم تحتل مركزاً رئيسياً في فلسفة نيتشه بصفة عامة وفلسفته الأخلاقية بصفة خاصة، فيرى نيتشه " إن القياس الموضوعي للقيم هو مقدار دعمها وتنظيمها للقوة "[2] وتشير هذه الفقرة إلي التأكيد علي إمكانية وجود معيار موضوعي للقيم، وان هذا المعيار وهو القوة يمثل أصلاً لكل القيم الأخلاقية، ومعيار القيمة يتحدد بمدي قدرتها على زيادة القوة وتنظيمها، ويشير هذا التحليل إلي وجود جانبين في التقويم، الأول هو زيادة القوة وهو الهدف الأصلي لإرادة القوة، أما الآخر فهو التنظيم والذي

1-F. Nietzsche ,**On The Genealogy of Morals**,Op.Cit,Book 2,No 2,p 59-60.
2 -F. Nietzsche , **The Will to power**, Op.Cit,Book ,No 674,p 312.

يعني وجود تراتبية معينة للقيم وفقا لمعيار القوة، والتي تتحدد من داخل النسق القيمي ذاته وفقاً لعلاقات القيم مع بعضها البعض.

ويقترح سلينيس عدة مبادئ يمكن أن تحكم هذه التراتبية[1]):

- كثافة القيم، أو كمية القوة التي تضفيها القيمة علي دفع الحياة إلي أهدافها .
- التساوق، أو قدرة القيمة علي الدخول في علاقات متشابكة مع غيرها من القيم داخل التراتبية أو النسق .
- خصوبة القيم، أو قدرة القيمة على توليد العديد من القيم داخل النسق تزيد من قوته وتماسكه .
- الاتجاه الإيجابي نحو الحياة، وهو معيار للنسق أو التراتبية باعتبارها كلاً يعمل علي تنظيم الحياة والسمو بها .

ومن خلال إعطاء إرادة القوة دوراً معيارياً للقيم والأخلاق يتجاوز نيتشه التفسيرات الميتافيزيقية للأخلاق الإنسانية، ويربطها بواقع الإنسان وحياته وقدرة الأخلاق والقيم على تقديم شروط جديدة لتحسين واقع الإنسان ودعم قدراته الحياتية وتحسينها .

ويؤدي هذا الفهم لإرادة القوة كمعيار أخلاقي إلي التركيز علي النشاط الإبداعي الأخلاقي المتمثل في القدرة علي إبداع قيم جديدة، و يعمل هذا النشاط الإبداعي علي زيادة القوة الدافعة للأفراد والمجتمعات نحو تحقيق أهدافها، وخلق أهداف جديدة للسعي خلفها' و تعميق وتوسيع الأساس الأخلاقي للمجتمع من خلال التنوع الذي يثري الحياة الأخلاقية فيه، ويرى جيمس ونشستير James J.Winchester أن ذلك يرجع إلي ما يعطيه نيتشه من أهمية لخلق القيم أكثر من القبول السلبي لقيم الآخرين، رفضه لعقلية القطيع في مقابل دعمه لما ينمي القدرة الأسمى علي الابتكار والمبادرة بما فيها من عناصر المغامرة والجرأة[2]).

ولهذا فإن نيتشه يرفض ما انتهي إليه حب الإنسان في الأخلاق المسيحية من خلق نمط من.الإنسان يتمثل في " حيوان القطيع، الإنسان الضعيف "[3]، فإن حب الإنسان عند نيتشه

1- E.E.Sleinis,**Op.Cit**, pp 14-16.
2- James J.Winchester, **Nietzsche's Aesthetic Turn** , Albany,University of New York,1994,p 156.
3- F.Nietzsche, **The Antichrist**,Op.Cit,No 3,p 5.

يعني دعم حياته وإنعاشها و اغنائها وصولا إلي النوع الأرقى من الجنس البشري " والذي يتحقق علي نحو نادر وعرضي إلا إنه قابل للتحقق في كل وقت ومكان"[1].

ولا يمكن فهم هذا الجانب الأخلاقي الإيجابي لإرادة القوة بعيداً عن مفهوم العلو علي الذات، فالقيم الأخلاقية بوصفها تجسيداً لإرادة القوة هي الوسيلة التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يحقق انتصاره علي شهواته ودوافعه وتنظيمها بالشكل الذي يحقق له الشروط الإنسانية الأسمى والتي تتجسد في الإنسان كإنسان أعلي " فإذا ما تمكنت البربرية من أن تسمو إلي الانتصار علي الذات، تتحول من غوغاء إلي أمة، ويظهر الإنسان الأعلى، ويكشف عن تفوقه وعلوه، بجرأة وشجاعة "[2].

ويمثل الإنسان الأعلى من وجهة النظر الأخلاقية الرؤية المتفائلة لامكانية الاكتمال البشري بمعزل عن التقويمات السائدة أو علي حد تعبير نيتشه " بمعزل عن الخير والشر "، وتصبح إرادة القوة فضيلة الإنسان الأعلى علي المستوي الأخلاقي "فالإنسان الأعلى ملائماً تماماً لمفهوم إرادة القوة، ويمكن تحديد خصائص الإنسان الأعلى باعتباره التعبير الإنساني المتفائل لإرادة القوة"[3]، والإنسان الأعلى هو الديونيسي الذي استطاع أن يقهر طبيعته الحيوانية، وأن يتسامى ببواعثه وينظم فوضى عواطفه، وأن يحيا بأصالة ويعطي أسلوباً لشخصيته، حر ومبتهج دون خطايا، وسيد لدوافعه الغريزية التي لا تهزمه، ومن ثم تتجلى فيه حياة صاعدة، تتكامل فيها عناصر الذكاء وقوة الشخصية والإرادة والذوق الرفيع والاستقلال وتحمل الألم لتشكل(روح المسيح في جسد قيصر)[4].

لذلك يمجد نيتشه في الإنسان القسوة والصلابة والحيوية والتلقائية، ولا يعني نيتشه بالقسوة والصلابة القدرة على إحداث الألم بالآخرين وعدم التأثر بمشاعرهم، فالإنسان الأعلى يتصف بالقدرة علي التعاطف والرحمة، والعطف علي الآخرين باعتباره ناتجا عن فيض القوة لا عن مشاركته للإحساس بعجزهم، والقدرة علي العفو كترفع لإرادة القوة لا كعجز أو تخلٍ عن الحق[5]، فالإنسان الأعلى لا يستخدم قوته وقسوته تجاه الآخرين لكن يجب عليه

1- **Ibid**,No 4,p 6.

٢ – صفاء عبد السلام، **مرجع سابق**، ص ٣٦٤.

3- E.E.Sleinis,**Op.Cit**, p 163.

4 - Bernd Magnus, **Nietzsche and The Project of Bringing Philosophy to an End**,Op.Cit,p54.

٥– فردريك نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، مرجع سابق، الكتاب الأول، ص١٤٦–١٤٧.

امتلاكها[1]، فإذا كان غياب عاطفة الشفقة أمراً معبراً عن النقص للإنسان العادي فإنه لدى الإنسان الأعلى يعبر عن ارتفاع النفس و علوها باعتبار الشفقة معارضة للانفعالات القوية التي تدعم الشعور بالامتلاء، لذلك ينظر الإنسان الأعلى للشفقة باعتبارها إنكارا للحياة [2].

وهو ما يعبر نيتشه عنه بالنبل الذي يراه مقصوراً علي القلة، والذي يتخذ من شخصية الفرد محوراً له، ويؤكد نيتشه ذلك بقوله:

> إن أساس هذه الرؤية للأخلاق هو تركيزها علي الاكتمال والفاعلية، فالإنسان الأعلى هو الإرادة التامة للفعل وفقاً للأخلاق ومن أجل الواجب إذا كان هذا الواجب مناسباً لشخصيته وغاياته [3].

ووفقاً لذلك فإن اتجاه التقويم الأخلاقي بالنسبة لنيتشه ليس المبادئ أو النوايا كما تشير بعض المذاهب الأخلاقية، ولا النتيجة كما تنص المذاهب البراجماتية، ولكن تنظيم الشخصية للمبادئ الأخلاقية" فالعنصر الأساسي من الحكم الأخلاقي عند نيتشه هو تركيزه علي الشخصية أو الخصائص المميزة لها، والتي تتحدد الأخلاق وفقاً لهذا المعيار وهو ما يدعي أخلاقيات السمات الشخصية Ethics of Charcter أو أخلاقيات الفضائل Ethics of Virtues "[4]، وهو المحور الثاني من محاور التقويم الأخلاقي عند نيتشه.

ويشير نيتشه إلي أصل كلمة أخلاقيات في اللغة اللاتينية Ethlos والتي تعني الشخصية[5] و يؤكد علي أن القيم الخلقية تتصل بشخصية الفرد أو أسلوبه في الفعل، فالفعل ذاته يخلو من القيم ويعتمد التقويم الأخلاقي بالكامل علي الفاعل، ونتيجة لذلك فإن هناك تحويل للبؤرة من قيمة أفعال الفرد إلي القيم المتمركزة حول الفرد، فيتم تحويل (ما قيمة الفعل الخيري ؟) إلي (ما قيمة كون الإنسان خيراً؟) وبدلاً من (ما قيمة الحياة الخيرة للمجتمع)إلي(ما قيمة مجتمع الحياة الخيرة ؟)[6] وهذا التحويل مشابه لما يقوم به نيتشه من

1- F. Nietzsche , **The Will to power**, Op. Cit,Book ,No 983,p 515.

٢- صفاء عبد السلام، **مرجع سابق**، ص ٢٢٩.

3- F.Nietzsche, **The Antichrist**,Op.Cit,No 57,p 30.

4- Thomas H.Brobjer,"Nietzsche's Affirmative Morality:An Ethics of Virtue",**The Journal of Niezsche Studies**,Vol 26,No 2,pp 64-78, UK: The Friedrich Nietzsche Society , 1996 , p67.

5- F. Nietzsche ,**On The Genealogy of Morals**,Op.Cit,Perface,No 5,p 29.

6- E.E.Sleinis,**Op.Cit**, p 204.

openkanar.com

تحويل البؤرة من المجرد إلي المنظوري، فبدلاً من التساؤل حول قيمة المعرفة، يتساءل ما قيمة معرفة بعينها لإنسان بعينه .

وترجع أهمية الشخصية من هذه الوجهة الأخلاقية إلي تقديمها للسياق الذي يبرر من خلاله الفعل، والذي يمكن من خلاله الحكم علي الفعل الأخلاقي من منظور جديد، هو مدي اتساق الفعل مع شخصية الفاعل، وكذلك فإن الأخلاق المتمركزة حول الشخصية هي دافع للإبداع والابتكار في مجال القيم أكثر منه قبول سلبي لقيم وآراء وتقاليد الآخرين.

ويشير ذلك إلي رؤية نيتشه للقيم باعتبارها من ابتكار النبلاء والسادة كتمجيد لخصائصهم الذاتية، لذلك فهو يتجه لفحص القيم من خلال بناء النماذج المتميزة، وتمثل هذه النماذج تجريداً وتبسيطاً وتكثيفاً لقيم هامة مفردة، والإنسان الأعلى ذاته نمط لتجسيد القيم الإيجابية، ويلجأ نيتشه لتجسيد هذه النماذج في أشكال أو أشخاص محددة مثل (السادة، العبيد، الإنسان الأخير، الإنسان الأعلى، نابليون، قيصر، المسيح، بولص) وتتحدد قيمة المثال أو النموذج من خلال اتجاهه نحو الحياة، ويؤكد نيتشه أن الأفكار والمبادئ ليست هي التي تبرر الوجود وتحسنه ولكن الأفراد من النوع الأرقى، والذين من خلال وجودهم يبررون ويحسنون الجنس البشرى، لأنهم يقدمون الأمثلة لما يمكن أن يحققه الوجود الإنساني .

إن رفض نيتشه الأساسي للتقويمات الأخلاقية في عصره هو في الأساس رفض لصورة الإنسان الأوروبي في ذلك العصر، كتجسيد ونتيجة لهذه الأخلاق، والتي أدت حسب رأيه إلى العادية والتوسط والإذعان وفقر الروح وضعف التوجه نحو إثراء الحياة وإنعاشها، وفي المقابل يقدم نيتشه الإنسان الأعلى كمثال ونموذج للاكتمال طبيعي لأخلاق الشخصية، "وهو ما يبدو من تصميم الإنسان الأعلى كنموذج ذي إرادة عليا في معارضة الإنسان الحديث، الإنسان الطيب، الإنسان المسيحي، وكل العدميات الأخرى"[1] .

ووفقاً للعرض السابق فإن مفهوم نيتشه للأخلاق يختلف عن الفهم التقليدي لها باعتبارها مجموعة من القواعد المحددة للسلوك، والتي تحكم علي الفعل باعتباره أخلاقياً أولا أخلاقياً من حيث مطابقتها لتلك القواعد، حيث ينظر نيتشه للأخلاق باعتبارها المسئولة عن بناء النسق القيمي الشخصي للفرد و الذي يسلك وفقاً له، ويكون الحكم الأخلاقي علي السلوك وفقاً لاتساقه أو عدم اتساقه مع الشخصية ككل .

1- **Ibid**,p 66.

ولا يتجاوز نيتشه المفهوم التقليدي للأخلاق فحسب، بل يتجاوز المفهوم المعاصر كذلك للأخلاق المتمركزة حول المشكلة، والتي تحصر تساؤلها في الكيفية التي يتصرف بها الفرد في مواقف محددة، و السؤال الرئيسي الذي تحاول الإجابة عليه هو " ما الأسلوب الصحيح للسلوك في هذه المشكلة أو تلك ؟"[1]، أما الأخلاق النتشويه فهي استجابة لسؤال مختلف تماماً وهو كيف يمكن للمرء أن يحيا ؟ وأي نمط من الشخصية يجب أن أكون عليه الآن وفي المستقبل ؟ وبذلك فهي تعد أخلاق متمركزة حول الفاعل Agent أو الشخصية Character.

ولعل هذا يتفق مع بعض الاتجاهات السسيولوجية والنفسية المعاصرة، والتي ترى أن الفرد يسلك في المواقف العملية وفقاً لبنائه النفسي ونمط شخصيته، وليس وفقاً للمبادئ الأخلاقية التي يلتزم بها، ولا ينفي هذا أن المبادئ الأخلاقية هي أحد المحددات المسئولة عن تكوين شخصية الفرد، ولكن لا يمكن رد كل المواقف السلوكية إليها[2].

ومن خلال العرض السابق للجانب الإيجابي في فلسفة نيتشه الأخلاقية يمكن تكوين فهماً شاملاً للممارسة المنهجية الجينالوجية وعملية إعادة تقويم القيم في مجال الأخلاق، والتي تتخذ نقطة انطلاقها في وضع تصور حول الأخلاق السائدة باعتبارها انتقاصا من قدر الإنسان وتحجيم لقدراته ونشاطاته الإبداعية و إضعافاً للحياة وإفقارا لها، ومن خلال هذا التصور يتم بناء استراتيجيات منهجية محددة يتم من خلالها تفكيك هذا النمط الأخلاقي وإبطال معاييره القيمية، مما يسمح باستخدام معايير أخلاقية جديدة يتم وفقاً لها تشكيل نسق قيمي مغاير، ليحقق الهدف الأساسي للمنهج الجينالوجي، وهو السعي نحو تحقيق الاكتمال البشري من الناحية الأخلاقية وفقاً لمنظور أخلاقي معين .

* تعقيب علي المنهج الجينالوجي :

يضم المنهج الجينالوجي كمقاربة Approach في دراسة القيم الأخلاقية ثلاث مجموعات رئيسية من التساؤلات :

1- E.E.Sleinis,**Op.Cit**,p 72.

٢- بيير بورديو، **بعبارة أخرى:محاولات باتجاه سوسيولوجيا انعكاسية**، ترجمة أحمد حسان، القاهرة، دار ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٢، ص ص ٢٧-٣٦.

openkanal.com

أ- التساؤل اللغوي البلاغي : ويتم من خلال تحديد المدلولات المتضمنة في المفاهيم والقيم الأخلاقية من خلال البحث عن أصل الاشتقاقات اللغوية لهذه المفاهيم والقيم، وما تدل عليه هذه الاشتقاقات من مضامين اجتماعية بالمعني الواسع للكلمة .

ب- الدراسة التاريخية : ويتم من خلالها تحديد الأنماط التاريخية للأخلاق، وتعقب التطورات والتـــغيرات الحادثة في هذه الأنماط وصولا إلي النقطة الزمنية التي يتم فيها الدراسة، وتحديد القيمة الأخلاقية لهذه الأنماط .

ج- الفحص السيكولوجي : ويتم من خلال الكشف عن التكوينات النفسية الكائنة وراء التقويمات الأخلاقية المختلفة، أو بعبارة أخري، الصور المختلفة لإرادة القوة وكيفية تأثيرها في إنتاج مُثُل وتقويمات أخلاقية مختلفة .

ولا يعني تقسيم المنهج الجينالوجي إلي مجموعات منفصلة من الأسئلة، أن نيتشه يفصل بين هذه الأسئلة أو أن المنهج الجينالوجي يقتضي مثل هذه الممارسة التجزيئية، حيث يقتضي المنهج مزاوجة بين العلوم المختلفة من أجل الوصول إلى رؤية متكاملة حول أصل القيم الإنسانية، ويتم التقسيم فقط لأغراض الدراسة وللوصول إلي فهم اعمق للممارسة الجينالوجية

- يردد العديد من الباحثين الاعتراضات التي يثيرها الفيلولوجيين ضد النتائج التي ينتهي إليها نيتشه من دراسته اللغوية والإيتمولوجية حول أصل القيم الأخلاقية [1] إلا أن الفضل يعود لنيتشه في توجيه البحث الأخلاقي لهذه الوجهة اللغوية حول اصل القيم وما تشير إليه من مدلولات اجتماعية .

- يكتسب التساؤل التاريخي أهمية داخل المنهج الجينالوجي النتشوي من تأكيده علي العمق التاريخي للممارسات الأخلاقية، ومحاولة إضفاء أصلاً وطابعاً تاريخياً علي ثنائية أخلاق السادة والعبيد، كما يكتسب أهميته من التركيز علي التحديد القيمي والأخلاقي للأنماط التاريخية للأخلاق وأساليب الحياة في الماضي، ودوره في تأسيس الرؤية الأخلاقية .

١-أنظر:

أ-عبد الرحمن بدوي، **مرجع سابق**، ص١٧٥.

ب- يسري إبراهيم، **مرجع سابق**، ص١٣٧.

– يحقق الفحص السيكولوجي عند نيتشه تقدماً ملحوظاً عن تناول معاصريه لعلم النفس، فيحاول نيتشه إرجاع السلوك الإنساني بأكمله إلي مبدأ أو عدة مبادئ مفسره، كما يبتعد نيتشه عن الاستخدامات الميتافيزيقية للفحص السيكولوجي، محاولاً تحديد وظيفته في تحليل أنماط محددة من الشخصية وفقاً لدوافعها وغرائزها، وكذلك تأكيد علي دور اللاشعور أو اللاوعي في السلوك الإنساني .

– تعاني الجينالوجيا كمنهجية في البحث الأخلاقي عند نيتشه من عدد من أوجه النقص، أهمها :

- يعمم نيتشه العديد من الأحكام الأخلاقية التي يتوصل إليها دون تقديم الدلائل الكافية على صحتها.
- التركيز علي الجانب الإنساني في الأخلاق وتجاهل الأصل والطبيعة الدينية للأخلاق، وينتمي هذا إلي السياق العام لفلسفة نيتشه، ورفضه الاعتماد على ما هو مجاوز للإنسان.
- حصر الفئات التصنيفية سواء للأنماط الأخلاقية أو للشخصية الإنسانية في فئتين محدودتين(أخلاق السادة وأخلاق العبيد) يضعف الصفة العلمية للمنهج، كما يتجاهل الميل البشري الواسع للتنوع والاختلاف .
- يقدم نيتشه بعض الحقائق التاريخية والتي يدعم بها آرائه في كثير من الأحيان دون أن يعرض لكيفية توصله أو استنتاجه لهذه الحقائق، مما يؤدي لإضعاف القيمة العلمية لنتائج بحثه الجينالوجي .

وبصفة عامة يمكن القول أن الجينالوجيا كما يطرحها نيتشه هي منهج في التحليل الحضاري للقيم والأخلاق، تؤكد علي أهمية العوامل ما قبل السياقية(الدين – الأخلاق – الفلسفة) في تشكيل نمط الحضارة الإنسانية، وتعمل علي الكشف عن مبادئ وآليات هذا التشكيل، وما له من تأثير علي شخصية وسلوك الفرد، مما يضفي مشروعية على استخدام الجينالوجيا – مع تجنب العيوب السابق ذكرها– في محاولة الكشف عن هذا التشكيل القيمي في الحضارات المختلفة من خلال مستويين، الأول تحليلي يهدف للكشف عن النمط الحضاري من خلال فحص آثاره علي البنية السيكولوجية والقيم الأخلاقية للأفراد، والآخر تركيبي ويهدف للكشف عن تركيب العوامل ما قبل السياقية(الدين–الأخلاق–الفلسفة).

* المضامين التربوية في فكر نيتشه الأخلاقي.

تتعارض النتائج التي انتهى إليها نيتشه من بحثه الجينالوجي للأخلاق وهجومه على القيم الأخلاقية المسيحية واليهودية، مع ما تؤمن به وتدعمه التربية العربية من قيم أخلاقية مستمدة من الأديان السماوية والحضارة العربية الأصلية، إلا أن البحث الموضوعي لفلسفة نيتشه الأخلاقية يمكن أن يشير إلى العديد من المضامين التربوية التي يمكن أن تشكل أهمية للبحث التربوي في مجال الأخلاق، ومن أهم هذه المضامين الجينالوجيا كمنهجية في البحث التربوي، و تنمية القيم الخلقية من خلال التربية.

١-الجينالوجيا ومنهجية البحث التربوي .

والعنصر الأساسي هنا هو محاولة تحديد مدي صلاحية الجينالوجيا كمقاربة Approach لتقويم القيم التربوية، يتخذ نقطة بدايته من الشعور بعدم إمكانية النظام القيمي القائم داخل المؤسسات التربوية-باعتبارها تمثيلا للقيم السائدة في المجتمع- علي خلق أنماط من السلوك تدعم الحاضر وتقويه، وتخلق استعداداً وإقبالا علي الحياة في المستقبل .

وفي هذه الحالة يتم استخدام المنهج الجينالوجي للكشف عن عدم تلاؤم هذه القيم (سواء كانت قيم أخلاقية أو علمية أو اجتماعية) مع النمط الحضاري المرغوب، من خلال الكشف عن أصل هذه القيم والعوامل التي شكلتها كعنصر أساسي داخل النسق القيمي التربوي القائم وتقديم نسق بديل.

إلا أن الممارسة الجينالوجية تفرض علي الباحث أن يكون واعياً بأهم خصائص المنهج الجينالوجي وصعوباته ليتمكن من تحقيق الاستفادة المرجوة، وأهم هذه الخصائص :

- أن الجينالوجيا هي منهج للبحث حول أصل القيم، يتم تحديد هدفه منذ البداية المبكرة في نقض النظام القيمي السائد لصالح نسق قيمي جديد، وفقاً لمعايير مغايرة.
- أن الجينالوجيا تستنبط معاييرها من الأصول المبكرة للحضارة، مما يسمح بنقد القيم السائدة بمعزل عن المعايير القيمية الموجودة .
- تركز الجينالوجيا علي العوامل الأساسية (الدين، الأخلاق، الفلسفة) اكثر من تركيزها علي العوامل الاجتماعية (مثل العوامل السياسية والاقتصادية) باعتبار أن لها

الدور الحاسم في تشكيل قيم الحضارة القائمة، وما تتصف به ظواهرها من ثبات نسبي في مقابل الظواهر الاجتماعية .

- تسمح الممارسة الجينالوجية بالاعتماد علي مداخل متعددة التخصصات العلمية، مما يزيد من عناصر المرونة والشمولية للمنهج في معالجة الظاهرة قيد البحث .
- أن الجينالوجيا ليس منهجاً نقدياً فحسب، بل هو بنائي كذلك، فتفكيك نسق القيم القائم يتطلب من الباحث إعادة البناء لنسق قيمي مغاير وفقاً لأسس تتوافر فيها عناصر الجدة والأصالة، وتساعد علي تحقيق الأهداف الإنسانية والحضارية .
- تعتمد الجينالوجيا علي القدرات الابتكارية سواء في آليات بناء المنهج أو استراتيجيات تفكيك وبناء القيم.

ومن أهم صعبات المنهج الجينالوجي :

- أن الخروج علي معايير النسق القيمي القائم هو مجازفة بسبب تحديه لمجموعة من الثوابت الأخلاقية والاجتماعية .
- صعوبة النقد وفقاً لمعايير مغايرة للمعايير السائدة لما تكتسبه من سطوة وثبات علي العقل البشري .
- غلبة الطابع الذاتي على المنهج الجينالوجي .

ويتطلب التغلب علي هذه الصعوبات إشاعة مناخ فكري يسمح بالاختلاف ويشجع عليه، كما يتطلب تحقيق الممارسة الجينالوجية طبقاً لنظام مجموعات العمل بين العديد من المتخصصين في المجالات المختلفة مما يمكن أن يحقق الاستفادة من العلوم المختلفة والتغلب علي ذاتية المنهج .

و يمكن وفقاً للعرض السابق استخدام الجينالوجيا كأحد المداخل التي تهدف لفحص القيم التربوية، من خلال الكشف عن الأصول اللغوية و السيكولوجية و التاريخية للقيم التي تعمد التربية إلي غرسها في المتعلم، ومدى ملاءمة هذه القيم للنمط الحضاري للمجتمع، و تحديد تأثير العوامل الدينية و الأخلاقية والفلسفية المشكلة لجذور هذا النمط .

ولا تعد المنهج الجينالوجي بديلا عن المناهج المستخدمة في دراسة القيم التربوية، ولكنه يشكل إضافة إلي هذه المناهج، مما يسمح بالمزيد من المرونة والشمولية في الرؤية،

ويساعد الابتكار كسمة أساسية في بناء آليات المنهج علي بقاء الممارسة المنهجية قابلة للتجديد والتطوير وفقاً لما تمر به العلوم من تطور متواصل على مستوى النظرية والتطبيق.

٢-نيتشه وتنمية القيم الخلقية.

يختلف مفهوم التربية الخلقية بين المداخل التربوية المتعددة نظراً للتباين في فهم كل منها لطبيعة الأخلاق والقيم ومصدرها، ويمكن حصر هذه الاختلافات في اتجاهين رئيسين هما الاتجاه الذاتي والاتجاه الموضوعي:

- **الاتجاه الذاتي** : يؤكد أصحاب هذا الاتجاه على أن القيم الأخلاقية هي قيم شخصية تنبع من شخصية الفرد وخبراته وواقعه ورؤيته للعالم، وبناء عليه فلا يمكن لمؤسسات التربية تبني نسق محدد من القيم الأخلاقية، وينحصر دور التربية الأخلاقية هنا في توجيه المتعلم لاعتناق النسق الأخلاقي الملائم له.
- **الاتجاه الموضوعي:** يشير هذا الاتجاه إلى أن القيم الأخلاقية تكتسب وجودا مستقلا عن الأفراد، وهي ثابتة ودائمة وصالحة للتطبيق في جميع الأوقات والأماكن(سواء كان مصدرها ديني أو وضعي)، ويصبح دور التربية هو العمل على اكتساب المتعلم لهذا النسق الأخلاقي، وتحوله من مبادئ مجردة إلى سلوك عملي يلتزم به الأفراد.

ويميل نيتشه إلى الاتجاه الأول من أصحاب الذاتية الأخلاقية، لما تتميز من إطلاق لقدرات الفرد الإبداعية، وتحقيق أقصى قدرات الإنسان على الخلق بصنعه لمبادئه وقوانينه الخاصة والتي تحقق له من خلال إيمانه والتزامه بها معنى وجوده الإنساني، لأن هذه المبادئ هي تمثيل لحياة الفرد ونموها، فلا يوجد انفصال بين الأخلاق باعتبارها مبادئ مفارقة وبين واقع الإنسان، بل يشكلان كلا واحدا يعمل على الارتقاء بحياة الإنسان وازدهارها، ويؤكد نيتشه على هذا المبدأ كمبدأ تربوي:

"أعجبك، وأقوالي تجذبك،

تريد أن تتبعني،وأن تسير على خطاي؟

اتبع بإخلاص ذاتك ذاتها،

وهكذا تتبعني رويداً رويداً"[1].

وينتقد الان بلوم Alan Bloom تأثير نيتشه على التربية الأخلاقية في العصر الحديث، ويرى أن تأكيد نيتشه علي أخلاق الشخصية واعتقاده بالمنظورية كأساس لفكره الأخلاقي يتعارض مع أهداف التربية الأخلاقية التي تتطلب الثبات والإجماع، كما يؤكد أن تأثر المربين والمعلمين بالفكر الأخلاقي النتيشوي قد أدى إلى تشرذم أخلاقي في المجتمعات والمؤسسات التربوية الغربية المعاصرة، وانتشار الأخلاق السلبية بل وحتى الأخلاق المعارضة للقيم المجتمعية[2].

إلا أن بعض الاتجاهات الحديثة في التربية الأخلاقية[٣] تشير إلي أن الإصرار علي تلقين القيم والمبادئ الأخلاقية المجردة للمتعلم في سن صغيرة يؤدي إلي تكوين عادات المراءاة والتظاهر، الناتجة عن عدم تمثل المتعلم لهذه القيم في داخله وشعوره بأنها مفروضة عليه، ويرجع ذلك إلي أن التربية الأخلاقية لا يمكن أن تتحقق من الخارج، ولكن يتم اكتسابها من داخل الفرد ذاته علي أساس من الخبرات الشخصية واليومية وضرورات الحياة والتطور.

ويمكن تجنب ما يشير إليه بلوم من تشرذم أخلاقي من جهة، أو إحساس المتعلم بالغربة عن القيم الأخلاقية من جهة أخرى، من خلال التوجه نحو تربية شخص المتعلم كنسق أخلاقي، ويشير هذا التوجه إلي كون القيم المتضمنة في التربية تتفق مع شخصية المتعلم وواقعه، وتكون مسئولية المربين هي المساعدة علي بناء الشخصية الأخلاقية وفقاً للإطار العام للقيم في المجتمع، مع الحفاظ علي عناصر الاستقلالية والتفرد للمتعلم.

ويساعد هذا التوجه في التربية الأخلاقية علي وجود بناء يربط بين المبادئ الأخلاقية النظرية وسلوك الفرد في الواقع، وهذا الرابط هو شخصية الفرد ذاته، والتي تشكل مجالاً لالتزام الفرد بالقيم والمبادئ الأخلاقية، لشعوره بالمسئولية في اختيار هذه المبادئ وتعبيرها عن شخصيته ذاتها، ويلائم مفهوم أخلاق الشخصية التحول الأكثر حداثة من مفهوم التربية

١- فردريك نيتشه، **العلم الجذل**، مرجع سابق، المقدمة، رقم ٧، ص ١٧.

2- Alan Bloom,**The Closing of The American Mind,New York,Simon and Schuster**,1983,pp 212-215.

٣ - بيو تشنكويتي، **التربية الأخلاقية في رياض الأطفال**، ترجمة : فوزي محمد عيسي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٢، ص ١١.

الأخلاقية إلى التنمية الأخلاقية من خلال التربية، وتحولها من كونها عملية اكتساب المتعلم لمفاهيم أو قيم أو سلوك أخلاقي، إلى مساعدة المتعلم على النمو الأخلاقي.

ويشير مفهوم التنمية الأخلاقية إلى تدريب المتعلم على حسن اختيار البديل الناسب من خلال المفاضلة في الموقف الأخلاقي، ويعني بنمو قدرة الطفل على إصدار الأحكام الأخلاقية التي تتفق مع قناعته الشخصية وضميره وتتوافق مع طبيعة مجتمعه، من خلال توفير سبل إنمائية تصل بالطفل إلى الاستقلال الأخلاقي والالتزام السلوكي[1].

ويهدف هذا الاتجاه إلى بناء شخصية الإنسان الحر، من خلال نسق تربوي يمكن من خلاله تكوين أخلاقيات الإنسان الحر الذي يحمل ضوابط سلوكه في داخله، وهو ما يعطي للفعل الإنساني قيمته ويقلص من الحاجة إلى الضوابط الخارجية للسلوك[2].

ويؤكد هذا الاتجاه على أهمية دور المدرسة في التنمية الخلقية والتوجيه الأخلاقي والقيمي للمتعلم، من خلال توفير بيئة تربوية تتوافر فيها الشروط اللازمة للنمو الأخلاقي من خلال إتاحة الفرصة أمام المتعلمين للقيام بلعب الأدوار و التعرض لموقف صراعي يتعلق بالمعرفة الأخلاقية، واكتساب الأطفال القيم الأخلاقية وفقاً لمحددين أساسيين[3]:

- الاهتمام بالاتجاهات غير التقليدية للتعليم الأخلاقي.
- ترسيخ الأخلاق المتمركزة في تعليم الشخصية.

وهو ما يتطلب إشاعة مناخ تربوي وإداري داخل المنظومة التربوية كلها، يشجع القدرة على الاستقلال الأخلاقي، والإدراك النقدي لما يطرأ على القيم من تغير، وما تتصف به عملية التقويم الأخلاقي من فروق بين الأفراد، وفقاً للخلفيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية التي ينتمي إليها من الأفراد .

ويحتل المعلم دوراً رئيسياً في التنمية الخلقية من خلال قدرته على اختيار الطريقة وتوجيه المعرفة، وإبراز القيم، ومعالجة الظروف الموضوعية المؤثرة في تشكيل اتجاهات

١- هناء محمد محمود الجبالي، **التربية الجمالية وتنمية القيم الخلقية**، رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم أصول التربية، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، ٢٠٠١، ص ١٩.

٢- عبد الفتاح إبراهيم تركي، **مرجع سابق**، صـــ ١٢٢.

٣- نجلاء السيد عبد الحكيم، **أثر شخصيات القصة في تنمية بعض القيم الأخلاقية لدى طفل الروضة من خلال برنامج قصصي مقترح**، رسالة ماجستير مقدمة لكلية رياض الأطفال، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣،ص ٢٥.

المتعلمين، وتقديم القدوة والنموذج الأخلاقي لهم، ويعبر المعلم من خلال ذلك عن موقفه الأخلاقي من جهة، وعن القيم والاتجاهات الأخلاقية السائدة في المجتمع والمدرسة من جهة أخرى، وهو ما يتطلب توعية المعلم بدوره في عملية التنمية الأخلاقية للمتعلم، وإدخال أساليب ووسائل التنمية الخلقية ضمن برامج إعداد المعلمين[1].

ومن أهم البرامج الحديثة القائمة على التنمية الخلقية والإيجابية الأخلاقية التي تنص عليها، البرنامج الذي يقدمه جون هينان John Heenan تحت اسم "بناء الشخصية من خلال القيم الأساسية"Building Character through Cornerstone Values كأساس للتنمية الخلقية الإيجابية، ويقوم هذا البرنامج على أساس أن القيم التي يتبناها الطالب بذاته هي حجر الزاوية في تكوين الشخصية التي ترغب المدرسة في تربيتها، ولا يجب أن يتم فرض هذه القيم على المتعلم كما لا يجب أن تخرج عن الإطار العام للأخلاق والقيم السائدة في المجتمع، بل تكون بمثابة تطوير لها أو صبغها بصيغة فردية، تجعل العلاقة بين المتعلم والقيم الأخلاقية علاقة شخصية[2].

ويتكون هذا المدخل من ثلاثة عناصر رئيسية هي، المعرفة الأخلاقية والعاطفة الأخلاقية و السلوك الأخلاقي كما يلي عرضه [3]:

- **المعرفة الأخلاقية:** وتنص على تعرف المتعلم على التراتبية القيمية السائدة في مجتمعه، وتنمية قدراته على نقدها بصورة سليمة، مما يتيح له أن يتبناها تبنياً إيجابياً.
- **العاطفة الأخلاقية:**والتي توجه المتعلم تجاه قيم محددة باعتبارها قيماً عليا تحتل قمة التراتبية القيمية، ويساعد على خلقها توجه الأسرة والمعلمين والأفراد الذين يمثلون نماذج أخلاقية للمتعلم.

١- أنظر:

أ- نجلاء السيد عبد الحكيم، **مرجع سابق**، ص ٢٦.

ب-نبيلة أحمد عبد الجواد، **القيم في فلسفات التربية المعاصرة**، رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم أصول التربية، معهد الدراسات والبحوث التربوية، جامعة القاهرة، ٢٠٠١، ص ٨٧.

2- John Heenan, **Building Character through Cornerstone Values,** New Zealand Foundation for Character Education,2002,pp 26-27.

3- **Ibid**,p 38.

openkanar.com

- **السلوك الأخلاقي**:ويعني مساعدة المتعلم على ضبط سلوكه وفقاً للقواعد والقيم المتبناة.

ويجب تحقيق التوافق والتكامل بين هذه الجوانب وصولاً بناء الشخصية المرغوبة، من خلال إطار يدعم الحرية الفردية والشعور بالمسؤولية الفردية للمتعلم عن نسق أخلاقه.

وهذه هي أهم الأفكار التربوية التي تتضمنها فلسفة الأخلاق عند نيتشه، ويتم في الفصل التالي تناول فكر نيتشه الاجتماعي، وأهم مضامينه التربوية.

obeikandl.com